المملكة العربية السعودية
مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٦

مجتمع الحجاز

في العصر الأموي

بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية

الدكتور عبد الله بن سالم الخلف

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

(ح) مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخلف، عبد الله سالم

مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية

المدينة المنورة

٦٣٢ ص، ٢٤سم

ردمك: ٨ـ٥ـ٩٢٧٤ـ٩٩٦٠

١ـ الحجاز ـ تاريخ ـ العصر الأموي ٢ ـ الأدب العربي ـ العصر الأموي

أ ـ العنوان:

ديوي ٩٥٣,٠٣ ٢١/٥٢٦٣

رقم لإيداع : ٢١/٥٢٦٣

ردمك: ٨ـ٥ـ٩٢٧٤ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

جميع الحقوق محفوظة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

سورة الأحزاب

المؤلف

عبد الله سالم الخلف

- ولد في مدينة الرس بمنطقة نجد في المملكة العربية السعودية عام ١٣٧٣ هـ. ١٩٥٣م.
- حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- يعمل أستاذاً بكلية المعلمين بمدينة الرس.

الناشر

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هيئة ثقافية خيرية تُعنى بتراث المدينة المنورة أسسها صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز آل سعود عام ١٤١٨ هـ. ١٩٩٧م.

رئيس مجلس الإدارة

صاحب السمو الملكي الأمير

مقرن بن عبد العزيز آل سعود

إصدارات المركز

- **المدينة المنورة في مئة مخطوط.**
- **مخطوطات مكتبة بشير آغا.**
- **المدينة المنورة في الوثائق العثمانية** - الجزء الأول.
- **مجتمع الحجاز في العهد الأموي** / بين المصادر الأدبية والآثار التاريخية / د. عبد الله سالم الخلف
- **المغانم المطابة في معالم طابة** للفيروز أبادي ٤ مجلدات.
- **المدينة المنورة تاريخ وحضارة:** فيلم وثائقي باللغات : العربية والإنكليزية والفرنسية والتركية والأردو والفارسية والإندونيسية وأقراص ***(D.VD & C.D)***.
- **عمارة المسجد النبوي** ***(C.D)***.
- **زيارة إلى المدينة المنورة:** باللغة العربية والإنكليزية ***(C.D)***.

العنوان

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - ص. ب: ٣٦٦٢

هاتف: ٨٢٤١٢٣١ - ٨٢٧٠٥٦١ - ٨٢٧٠٥٦٢ - فاكس: ٨٢٧٠٥٤٧

intenet: www.al-madinah.org/ E-mail:info@al-madinah.org

تقديم

هذا الكتاب مناقشةٌ منهجيةٌ هادئةٌ لقضيةٍ صنعتها بعضُ الكتابات القديمة، وضخّمتها دراساتٌ أدبيةٌ حديثة: هي التغيرات التي أصابت الحياة الاجتماعية في المدينة ومكة بخاصة، والحجاز بعامة، في العهد الأموي.

فالروايات التي ساقتها بعض كتب الأخبار، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بالذات، توحي بأن المجتمع الحجازي تحوَّل بعد انتقال الخلافة إلى دمشق إلى مجتمعٍ لاهٍ عابثٍ يتجاوز القيم التي غرسها العهدُ النبويُّ، وعهدُ الصحابة، أو يتساهل فيها إلى حدِّ التفريط، وجاءت دراساتُ عددٍ من مؤرخي الأدب المحدثين مثل د. طه حسين ود. نجيب البهبيتي ود. شوقي ضيف، فاعتمدت على تلك الأخبار، وعدَّتها حقائقَ قاطعة، ولم تَرجِعْ إلى أية مصادرَ أخرى تقايسها عليها، ورسمت صورةً للمدينة المنورة ومكةَ المكرمةَ غارقةً في الغناء، والرقص، والنبيذ، حتى لينسى المرء أن هاتين المدينتين على بعد جيل أو جيلين من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وأن المسجد النبوي ما يزال في المدينة، والمسجد الحرام في مكة، وفيهما فقهاء، وعلماء، وعابدون، ويحسب أن أولياء الأمور، بما فيهم أمراء المدينتين المقدستين كانوا يشاركون في بعضه ويسكتون عن بقيته.

ولئن كان كتاب الأغاني - كما يدل عليه اسمه - همه الأول رصد أخبار المغنين والشعر الذي تغنوا به، فإنه في أحسن حالاته يسلط الأضواء على زاوية محددة في المجتمع، ويوظِّف لها كل ما يعرضه من أخبار وتراجم، ومن الظلم أن نقيس المجتمع كله به، ونهمل عامدين أو غافلين، ما تردده كتب الحديث - وهي أوثق إسناداً وأعظم منهجية من كتب الأخبار والأشعار - وكتب التاريخ والتراجم، ومن أدنى ضوابط المنهجية في الكتابة أن ننظر بشمولية تقارن ما جاء في كل منها، وتدرس بعد السند وصحة النقل مقدار الذيوع والانتشار ونسبة وجودها في المجتمع آنئذ تصدق الصورة التي ترسمها الدراسة، أو تقارب الصدق.

لذلك، وسعياً وراء الحقيقة اهتم مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة بالبحث في صورة الحياة في مجتمع المدينة في جيل التابعين وتابعي التابعين إلى نهاية القرن الثاني، لأن قدراً وافراً من أخبار الأغاني في هذه الفترة يدور حولها، والدراسات الحديثة التي اعتمدت عليها جعلت المدينة البؤرة الأهم حتى ليقول فيها شوقي ضيف: «وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس يتغنى، وكان قاضي المدينة ابن حنطب يتغنى، وكان والي المدينة عمر بن عبد العزيز يتغنى، ويظن الإنسان أنه لم يبق في المدينة أحد إلا وكان يتغنى». (الشعر والغناء في المدينة ومكة ص٦٨).

وقد وجد المركز في هذا البحث الذي أعدّه الأستاذ عبد الله بن سالم الخلف لنيل درجة الدكتوراه ما يحقق معظم أهدافه في هذه القضية، فهو دراسةٌ منهجيةٌ جادةٌ، تنظر بشموليةٍ واسعة في مصادر تراثية متنوعة: الأدب والتاريخ والتراجم وكتب الرجال، وكتب الحديث.. إلخ. ويتتبع إسناد الروايات ومصداقية رواتها بمنهج المحدثين العلمي، وينظر في كتب التاريخ، ويمحص الأخبار والوقائع، ويصل إلى النتائج بموضوعية كاملة، فاتصل بصاحب البحث واتفق معه على نشره، وطبق عليه شروط التحكيم التي يطبقها على منشوراته العلمية كافة، وجاءت تقارير المحكمين تثني على منهجيته، وتؤكد ضرورة نشره.

والمركز إذ يسره أن ينشر هذا البحث القيم ليفتح الباب واسعاً لكل بحث منهجي ذي صلة بالمدينة المنورة، ويرحب بنشره، خدمة لمدينة رسول الله ﷺ أولاً، وللحقيقة والثقافة والأجيال الحاضرة والقادمة من ثمّ.

والله من وراء القصد

د. عبد الباسط بدر

مدير عام مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فهرس موضوعات

الصفحة

مجتمع الحجاز في العصر الأموي في نصوص الكتاب والسنة ____ ١٣

مجتمع الحجاز في العصر الأموي في دراسات المعاصرين ____ ١٩

الفصل الأول : تقويم روايات الاخباريين ____ ٢٩

التزيد والكذب في روايات الأخباريين ____ ٢٩

الإسناد في القصص والأخبار ____ ٣٦

اعتماد بعض الدارسين على الأخبار بالرغم من طعنهم فيها ____ ٤٩

دوافع التزيد والكذب في الأخبار ____ ٥٣

دفاع أصحاب القيان عن مهنتهم ____ ٨٦

الفصل الثاني : ملامح الحياة العامة في الحجاز ____ ١٠١

مشاركة أهل الحجاز في الحياة السياسية ____ ١٠٣

الحالة المعيشية ____ ١٢٩

الحياة العلمية ____ ١٧٧

الفصل الثالث : الشعر في الحجاز ____ ١٩٥

تمهيد ____ ١٩٥

موقف فقهاء الحجاز ونساكه من الشعر والغزل ____ ١٩٩

دوافع الاتجاه إلى الغزل في الشعر الحجازي ____ ٢٣٥

اتجاهات الغزل الحجازي ____ ٢٦٧

الحب العذري في مجتمع البادية ____ ٢٩٣

الفصل الرابع : المرأة في المجتمع الحجازي ٣٠٥

تمهيد ٣٠٧
المرأة الحجازية في الأخبار والقصص ٣١٥
المرأة في الشعر الحجازي ٣٤١
القصص الغزلي بين الحقيقة والخيال ٣٨٩
المرأة الحجازية في دراسات المعاصرين ٤١٣
أ ـ قضية السفور والاختلاط ٤١٤
ب ـ المرأة والشعراء ٤٣٧

الفصل الخامس ـ الغناء والشراب ٤٦٣

١ ـ الغناء في الحجاز ٤٦٣
أ ـ مذهب أهل الحجاز في الغناء ٤٦٣
ب ـ أخبار الغناء والمغنين ومدى الثقة بها ٤٧٨
جـ ـ الغناء والمغنون في الشعر الحجازي ٥٠٨
د ـ حالة الغناء ٥٢٩
هـ ـ آراء المعاصرين حول انتشار الغناء في الحجاز
عرض وتقويم ٥٤٢
و ـ آراء المعاصرين في تأثير الغناء في الشعر ـ عرض وتقويم ـ ٥٦٥
٢ ـ الشراب ٥٨٢
الخمر في الشعر الحجازي ٥٨٧
آراء المعاصرين ـ عرض وتقديم ٥٩٢

خاتمة ٥٩٩

مصادر ومراجع ٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. أما بعد:

فإن الحديث عن مجتمع الحجاز في العصر الأموي ليس جديداً. فقد طرق منذ زمن طويل، وكاد يكون في نظر البعض مستهلكاً لا مجال للتجديد فيه، حيث وصل الباحثون فيه إلى نتائج وآراء انتشرت، وتداولها كثير من الدارسين، وأصبحت تدرس للطلاب في الجامعات والمدارس، وكأنها حقائق مسلمة لا مجال للشك فيها.

تقول هذه الدراسات إن الحجازيين شعروا باليأس بعد أن انتقل الحكم إلى بني أمية، لأن هؤلاء عزلوهم في بلادهم، ومنعوهم من المشاركة في الحياة السياسية، وأغدقوا عليهم الأموال ليصرفوهم عن التفكير في الخلافة. فكفي الحجازيون مؤونة العيش، وغرقوا في الترف والنعيم، وانصرفوا عن حياة الجد، وفرغوا للهو والغناء والغزل حتى أصبحت هذه الأمور شغلهم الشاغل.

وتحدث أولئك الدارسون عن وجود بعض الظواهر الاجتماعية، كخروج النساء سافرات، وما نالته المرأة الحجازية من حرية في الاختلاط بالرجال والبروز إليهم والتصدي للشعراء، واللقاء بهم، وإغرائهم بالغزل فيهن، ورضى أقربائهن عن ذلك، وعدم شعورهم بالحرج منه. كما تحدثوا أيضاً عن مجالس الغناء والشراب والرقص المختلط. وذكروا أن ما أنتجه معظم شعراء الحاضرة الحجازية من شعر كان إباحياً يعكس ما كان يعيشه أفراد المجتمع من اللهو والمجون.

بيد أن تلك النتائج على الرغم من شهرتها وتداولها كانت تثير في نفوس الكثيرين دهشة وحيرة وتعجباً، وكان هناك تساؤل دائم عن مدى صحتها. فلم يكن من اليسير التصديق بأن ذلك المجتمع الذي وصفه الرسول ﷺ بالخيرية في عمومه، والذي ورث أنقى المجتمعات التي عرفتها البشرية وأطهرها يمكن أن يتحول بهذه السرعة وفي فترة قصيرة إلى تلك الحالة العجيبة التي وصفه بها أولئك الدارسون.

وكان لشيوع تلك الصورة وكثرة تداولها، أثر كبير في ترسيخها وتثبيتها وإقناع كثير من الناس بها، فهي وإن كانت غريبة إلا أن تظاهر الأقوال واتفاق كثير من مشاهير المعاصرين عليها عمل على نشرها وترسيخها.

ولا يعني ذلك أن هذه الآراء كانت محل إجماع، فقد كان هناك من أبدى تحفظاً وشكوكاً تجاه بعضها، وأشار إلى ما فيها من مبالغة. ولكن هذا التحفظ لم يعد في معظم الأحيان الإشارات العابرة، ولم يتجاوزها إلى البحث الشامل المفصل، الذي يقارع الحجة بالحجة، ويؤيد الرأي بالدليل[1].

وعلى الرغم من أنني لم أكن مطمئناً إلى صحة تلك الآراء إلا أنني كنت أقف أمامها حائراً عاجزاً عن إقناع نفسي ببطلانها، بل إنني كنت أحياناً أرى أنها وإن لم تكن صحيحة صحة تامة فإنها تتضمن قدراً من الحقيقة، وأن غاية ما يمكن أن يوجه إليها من نقد هو أن فيها شيئاً من المبالغة، وكنت أحس بشدة الحاجة إلى كشف حقيقة الأمر، وبحث هذا الموضوع بحثاً شاملاً يعتمد على الاستقصاء والتحقيق الذي يؤدي إلى نتائج مرضية، مدعومة بالأدلة والحجج الكافية.

(١) من أهم وأفضل ما اطلعت عليه في هذا الموضوع ما كتبه د. عبد القادر القط في كتابه في الشعر الإسلامي والأموي. فله فيه نظرات وملاحظات قيّمة. مع أن غايته في الكتاب فنية خالصة. وكذلك ما كتبته د. عائشة عبد الرحمن في كتابها سكينة بنت الحسين.

وقد أشار عليّ أستاذي الجليل د. محمد محمد حسين رحمه الله بأن يكون هذا موضوعاً لرسالة الدكتوراه، فوافق هذا ما كنت أفكر فيه وأتطلع إليه، إلا أنني كنت متخوفاً من الإقدام عليه، لأني كنت أشك في إمكان الوصول إلى نتائج جديدة، وخشيت أن أنتهي إلى ما انتهى إليه السابقون، فأكون بذلك قد بذلت جهداً كبيراً في سبيل الوصول إلى ما وصل إليه الباحثون قبل عشرات السنين.

وأخيراً اطمأنت نفسي وأقدمت على هذا البحث على علم مني بما يتطلبه من جهد كبير في التنقيب في المصادر عن النصوص التي يمكن أن تدلنا على حقيقة الأمر وتكشف لنا عن الحالة التي كان يعيشها ذلك المجتمع، وما تحتاج إليه تلك النصوص من تحقيق وتمحيص وغربلة تميز بين ما هو شاذ باطل، وبين ما يمكن الاعتماد عليه.

ولم أقتصر على نوع معين من المصادر، بل رجعت إلى كتب التفسير والحديث والتاريخ والأخبار والنسب والأدب ودواوين الشعراء وكتب التراجم على اختلاف أنواعها. كما أنني كنت أقرأ في كتب المعاصرين باحثاً عن آرائهم وحججهم وأدلتهم، والمصادر التي استمدوا منها تلك الأدلة.

وقد اختلفت أهمية المصادر التي رجعت إليها من موضوع إلى آخر، ففي تقويم روايات الأخباريين وتحقيق الأسانيد ومعرفة أحوال الرواة كان من أهم المصادر كتب الجرح والتعديل، ككتاب المجروحين لابن حبان، وميزان الاعتدال للذهبي، ولسان الميزان وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني. وكتب التاريخ كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي. كما أفدت أيضاً من كتابي الفهرست للنديم ومعجم الأدباء لياقوت الحموي في تتبع حركة التأليف في أخبار الحجاز، ومعرفة ما قام به الرواة المتقدمون في هذا المجال، وما تركوه من آثار.

أما المادة الأخبارية فقد أفدتها من مصادر شتى. من أهمها كتب الحديث النبوي ثم كتب التاريخ والتراجم والأخبار والأدب، كتاريخ الطبري ونسب قريش

لمصعب بن عبد الله الزبيري، وكتاب جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار، والعقد الفريد لابن عبد ربه والطبقات الكبرى لابن سعد.

واعتمدت في النصوص الشعرية على دواوين الشعراء، وعلى ما تضمنته كتب الأدب والأخبار ولاسيما كتاب الأغاني.

وقد وجدت في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية نصوصاً قيّمة أفدت منها في موضوعات شتى. كما أفدت من كتب التفسير والفقه والحديث في بحث الموضوعات التي تتصل بمذهب أهل الحجاز وآراء علمائه في المسائل المتصلة بالبحث، كالحجاب والغناء والشراب.

وكان اهتمامي في هذا البحث منصبّاً على الجوانب الحيوية الهامة التي تجسد الحياة الحقيقية لذلك المجتمع، وتكشف عن مدى سمو تلك الحياة، وسمو الأهداف التي كان أولئك القوم يحيون من أجلها، والآمال التي كانوا يتطلعون إليها. وهي الجوانب التي لابد أن تترك أثراً عظيماً في نظرة المسلمين إليهم، وشعورهم تجاههم، بحسب التصور الذي يرتسم في أذهانهم عنها. كما أنها الجوانب التي يمكن من خلالها أن نتحقق من مدى صحة ما ذكره الدارسون من أن أولئك القوم عاشوا للهو واللعب وابتعدوا أو أبعدوا عن المشاركة في الجوانب الهامة من حياة الدولة الإسلامية.

وعلى الرغم من وفرة المادة الأخبارية إلا أنها كانت غير كافية وغير محققة للغرض المطلوب، لأن معظمها حكايات غير موثقة ولا تتوافق مع ما توحي به النصوص الشعرية. أما الأخبار التي يمكن الاعتماد عليها فقد كانت قليلة عزيزة المنال، ويحتاج الوصول إليها إلى جهود شاقة في التنقيب والبحث.

كذلك كانت معظم الأخبار تتحدث عن الحالات الشاذة التي تمثل خروجاً عن القيم السائدة، لأن مثل تلك الحالات هي التي تلفت النظر وتستحق الرواية والذكر. أما الظواهر المألوفة فلم تكن للرواة بها عناية كبيرة لأنه ليس فيها من

الجديد والغريب ما يستحق النقل والرواية، ولاسيما أنها كانت في الأصل تنقل إلى المعاصرين لذلك المجتمع، أو الذين عاشوا بعده بزمن غير طويل.

وقد اقتضى البحث تحقيق أسانيد كثير من الأخبار، ولاسيما ما اعتمد عليه الدارسون المعاصرون. بالإضافة إلى دراسة مضمونها والكشف عما فيها من دواعي القبول أو الرد. ولم يكن هذا التحقيق سهلاً، لأن كتب التراجم والجرح والتعديل لم تكن تولي رواة الأخبار اهتماماً إلا إذا كان ممن أسهم في رواية الحديث النبوي الشريف. لذلك كنت أبذل جهداً كبيراً في التنقيب عن أسماء بعض الرواة، وفي كثير من الأحيان لا أخرج من بحثي بما يشفي ويحقق الغرض المطلوب.

وبعد، فإنني آمل أن أكون قد وصلت إلى نتائج طيبة وأسهمت في توضيح الحقيقة كما أرجو أن يكون هذا البحث قد وضع أساساً جديداً وسليماً لدراسة الأدب الحجازي لأن معظم الدراسات التي ظهرت عن هذا الأدب كانت متأثرة بالصورة المشوهة التي شاعت بين الدارسين.

واعترافاً مني بالفضل لأهله فإنني أتوجه بالشكر إلى أستاذي الفاضل الدكتور عبد القدوس أبو صالح الذي كان له أثر كبير في إخراج البحث بهذه الصورة من خلال توجيهاته وملاحظاته القيّمة ومتابعته الدائمة لكل ما كتبته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبدالله الخلف